عَـبْـدُ الله بْـنُ الْـمُـبَـارَك وَالْـعَـجُـوز

يُحْكَى أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الْمُبارَكِ – رَحِمَهُ اللهُ – قال: خَرَجْتُ حَاجًّا إلى بَيْتِ الله الحَرَامِ وَزِيارَةِ قَبْرِ الْمُصْطَفَى – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ – فَإِذَا أنا في بَعْضِ الطَّرِيقِ وَإذا بِسَوَادٍ عَلى الطَّرِيقِ، فَإذا هِيَ عَجُوزٌ عَلَيْهَا دِرْعٌ مِنْ صُوفٍ وَخِمارٍ مِنْ صُوفٍ فَقُلْتُ لَهَا: السَّلامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكاتُهُ، فَقَالَتْ: "سَلاَمٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ". فَقُلْتُ لَهَا: يَرْحَمُكِ اللهُ مَا تَصْنَعِينَ في هَذا المَكانِ؟ فَقَالَتْ: "مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ". فَعَلِمْتُ أَنَّها ضَالَّةٌ عَنِ الطَّرِيقِ فَقُلْتُ لَهَا: أَيْنَ تُرِيدِينَ؟ فَقَالَتْ: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى".فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ قَضَتْ حَجَّهَا وَهِيَ تُرِيدُ بَيْتَ الْمَقْدِسَ فَقُلْتُ لَهَا: كَمْ لَكِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟ فَقَالَتْ: "ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا".فَقُلْتُ لَهَا: مَا أَرَى مَعَكِ طَعَامًا تَأْكُلِينَ مِنْهُ؟ فَقَالَتْ: "هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي". فَقُلْتُ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ تَتَوَضَّئِينَ؟ فَقَالَتْ: "فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا". فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ مَعِيَ طَعَامًا فَهَلْ لَكِ فِي الْأَكْلِ مِنْهُ؟ فَقَالَتْ:"ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ". فَقُلْتُ لَهَا: لَيْسَ هَذَا شَهْرَ صِيَامِ رَمَضَانَ، فَقَالَتْ: "وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ". فَقُلْتُ: قَدْ أُبِيحَ لَنَا الْإِفْطَارُ فِي السَّفَرِ، فَقالَتْ: "وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ".فَقُلْتُ: لِمَ لَا تُكَلِّمِينِي مِثْلَ مَا أُكَلِّمُكِ؟ فَقَالَتْ: "مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّالَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ". فَقُلْتُ: فَمِنْ أَيِّ النَّاسِ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: "وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا". فَقُلْتُ: قَدْأَخْطَأْتُ فَاجْعَلِينِي فِي حِلٍّ، فَقَالَتْ:"لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ". فَقُلْتُ: فَهَلْ لَكِ أَنْ أَحْمِلَكِ عَلَى نَاقَتِي هَذِهِ فَتُدْرِكِي الْقَافِلَةَ ؟ فَقَالَتْ: "وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ."

قَالَ: فَأَنَخْتُهَا فَقَالَتْ: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ". فَغَضَضْتُ بَصَرِي عَنْهَا وَلَكِن لَـمَّا أَرَادَتْ أَنْ تَرْكَبَ نَفَرَتِ النَّاقَةُ فَمُزِّقَتْ ثِيَابُهَا فَقَالَتْ: "وَمَاأَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ". فَقُلْتُ لَهَا اصْبِرِي حَتَّى أَعْقِلَهَا، فَقَالَتْ: "ففَهَّمْنَاهَا سُلَيْـمَانَ". فَعَقَلْتُ النَّاقَةَ وَقُلْتُ لَهَا: ارْكَبِي، فَلَمَّـا رَكِبَتْ قَالَتْ: "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَـمُنْقَلِبُونَ."

قَالَ: فَأَخَذْتُ بِزِمَامِ النَّاقَةِ وَجَعَلْتُ أَسْعَى وَأَصِيحُ فَقَالَتْ: فَقَالَتْ:"وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ."

فَجَعَلْتُ أَمْشِي رُوَيْدًا رُوَيْدًا وَأَتَرَنَّمُ بِالشِّعْرِ، فَقَالَتْ: "فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ". فَقُلْتُ لَهَا: لَقَدْأُوتِيتِ خَيْرًا، فَقَالَتْ: "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ". فَلَمَّا مَشَيْتُ بِهَا قُلْتُ لَهَا أَلَكِ زَوْجٌ؟ فَقَالَتْ:"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوالاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ. فَسَكَتُّ وَلَمْ أُكَلِّمْهَا حَتَّى أَدْرَكْتُ بِهَا الْقَافِلَةَ فَقُلْتُ لَهَا: هَذِهِ الْقَافِلَةُ فَمَا لَكِ فِيهَا؟ فَقَالَتْ: "اَلْمَالُ وَالْبَنُونُ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا". فَعَلِمْتُ أَنَّ لَهَا أَوْلَاداً، فَقُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ فِي الحَجِّ؟ فَقَالَتْ: "وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ". فَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ أَدِلَّاءُ الرُّكَّابِ فَقَصَدْتُ بِهَا الخِيَامَ وَقُلْتُ هَذِهِ الخِيَامُ فَمَا لَكِ فِيهَا؟ فَقَالَتْ: "وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ". فَنَادَيْتُ يَا إِبْرَاهِيم، يَا مُوسَى ، يَا يَحْيَى ؛ فَإِذَا أَنَا بِشُبَّانٍ كَأَنَّهُمْ الْأَقْمَارُ قَدْ أَقْبَلُوا فَلَمَّا اسْتَقَرَّ مِنْهُمُ الجُلُوسُ قَالَتْ:" فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى المَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ". فَمَضَى أَحَدُهُمْ فَاشْتَرَى طَعَامًا فَقَدَّمَهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَقَالَتْ:" كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الخَالِيَةِ".

قُلْتُ: اَلْآنَ طَعَامَكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تُخْبِرونِي بِأَمْرِهَا، فَقَالُوا: هَذِهِ أُمُّنَا لَهَا مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ تَتَكَلَّمْ إِلَّا بِالْقُرْآنِ مَخَافَةَ أَنْ تَزِلَّ فَيَسْخَطَ عَلَيْهَا الرَّحْمَنُ، فَقُلْتُ: ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.